

الباب الأول

نشأة بـيرس

- ١ - ظهور المماليك في مصر .
- ٢ - بـيرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب .
- ٣ - بـيرس منذ اتصاله بالملك الصالح إلى أن انتصر على الصليبيين بمصر .

obeykandi.com

الباب الاول نشأة بـيـبرس

١ - ظهور المماليك في مصر

يجمل بنا قبل أن نمضى في الكلام عن حياة بـيـبرس أن نوجز القول عن ظهور المماليك في مصر . ولا بأس من أن نرجع قليلا الى تاريخ الدولة العباسية التي وضعت الأساس الأول لاستخدام عناصر أجنبية تقوم بإدارة الدولة دون الاعتماد على عصبيتها . تلك السنة التي كان لها أكبر الأثر في اضطرابها والتي درج عليها بقية الدول الإسلامية بعدها .

قامت الدولة العباسية في مبدأ أمرها على أكتاف الفرس^(١) . ومن ثم كان لهم الخطوة التامة عند الخلفاء العباسيين . فقد ألقوا اليهم مقاليد الدولة كما عهدوا اليهم بالشئون الخطيرة فيها كالوزارة والحجابة وما الى ذلك من مهام الدولة . نرى ذلك جليا في بيتي بنى برمك وبنى سهل . بيد أن هؤلاء الفرس لم يقفوا عند هذا الحد . بل أخذوا في سلب السلطة تدريجيا من أيدي الخلفاء العباسيين . ولقد شعر بذلك بعضهم فأوقع بهم قبل أن يوقعوا به وأدرك العباسيون أنهم في الواقع مع الفرس كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ذلك أنهم أبعدوا العرب عن مناصب الدولة ولم يعد في استطاعة الخلفاء أن يعيدوهم الى ما كانوا عليه من سلطة ونفوذ ولم يبق أمامهم إلا البحث عن عنصر جديد بعيد عن أهواء العرب السياسية ومصالح الفرس الخاصة . فاجأوا الى العنصر التركي لاعتقادهم أنه مجتذ من الطموح الذي امتاز به الفرس والعصبة التي عرف بها العرب . وهذه السياسة نراها واضحة في عهد

(١) Sir William Muir, The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, p.433.

المعتصم الذى اصطنع الأتراك واستخدمهم فى جيشه وعهد اليهم بولاية الأقاليم؛ غير أنه سرعان ماظهر خطأ هذه السياسة فتدخل هؤلاء الأتراك على مر الأيام فى تولية الخليفة وعزله اذا لم يحز رضاهم . ظهر ذلك جليا بعد وفاة الواثق (٢٣٢ هـ) حيث عرض عليهم ابنه فلم يوافقوا على توليته لصغر سنه ثم أشير عليهم بجعفر بن المعتصم فلقى هذا الاختيار قبولا لديهم؛ ومن ثم لم يجد الناس بدا من مبايعته .

وهكذا صار أمر الخلافة بأيدي هؤلاء الأتراك . وهذا يفسر لنا طمع الأمراء واستقلالهم بالأقاليم الاسلامية الأمر الذى أضعف الخلافة العباسية وأدى الى سقوطها فى النهاية على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وأما استخدام المماليك فى مصر فانه يرجع الى أيام الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ)؛ [٨٦٨ - ٩٠٥ م] . فقد اشترى أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة المماليك من الديلم ليقوى بهم جيشه . وقد ذكر ابن إياس أن عدد هؤلاء المماليك وصل الى أربعة وعشرين ألف مملوك . ثم جاءت الدولة الاخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ)؛ [٩٣٥ - ٩٦٩ م] وعلى رأسها محمد بن طغج الاخشيد . وكان معظم الجيش فى عهده وعهد من جاء بعده من أولاده من الأتراك والديلم . ويروى لنا أبو المحاسن^(٤) "أنه كان متجملا فى موكبه وملبسه . فكان موكبه يضاهى موكب الخلافة وبلغت عدة ممالিকে ثمانية آلاف مملوك" . ولما جاء الفاطميون الى مصر (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ)؛ [٩٦٩ - ١١٧١ م] وأسسوا بها دولتهم ساروا على طريقة العباسيين فى الاعتماد على غير أبناء جنسهم وأصبح جيشهم يتألف من عدة عناصر أهمها :

(١) ابن طباطبا؛ الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢١١؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣

• Sir William Muir, The Caliphate. p. 513

(٢) Sir William Muir. Op. Cit. p. 523. (٣) تاريخ مصر: ج ١ ص ٣٧

(٤) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ج ٣ ص ٢٥٦

- (١) المغاربة الذين قامت على أكتافهم هذه الدولة في بلاد المغرب .
- (٢) السودان الذين استكثر منهم الخلفاء منذ أيام المستنصر .
- (٣) الأتراك الذين اشتراهم الخلفاء المتأخرون ليكونوا عماد جيشهم وعلى الأخص بعد خروج بلاد المغرب عن سلطانهم في عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) . وعلى يد هؤلاء كان انحلال الدولة الفاطمية وزوالها سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وذلك بسبب قيام العداء بينهم وبين السودان من جهة والتنافس بين رجالهم على الوزارة من جهة أخرى واستعانة بعضهم بالصليبيين مما أوجب تدخل نور الدين محمود صاحب دمشق في أمر مصر وإرساله الجيوش مع أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب . فقصوا على البقية الباقية من استقلال الخلفاء الفاطميين .

وقد نجح صلاح الدين في توطيد سلطته في مصر وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وعلى أثر وفاة هذا الخليفة تم استقلال صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية في مصر (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ) ، [١١٧١ - ١٢٥٠ م] ولم يكن سلاطينها مصريين — كما نعلم — بل كانوا أجانب عن هذه البلاد . جاءوا إليها من أذربيجان ، وقد عملوا على جلب الأتراك إليها وبدلوا الأموال الضخمة في شرائهم بغية الاعتزاز بقوتهم .

(١) كان صلاح الدين قد تولى الوزارة بعد وفاة شيركوه وبدأ عمله بالانتصار على الفرنجة في دمياط فاعتبره المصريون حاميا لهم ثم عمل تدريجيا على تقوية مركزه في مصر . فأرسل إليه نور الدين يرغبه في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل الخليفة الفاطمي . غير أن صلاح الدين تردد في تنفيذ هذه الرغبة حتى لا يثير أهالي مصر . وكان الخليفة في ذلك الوقت مريضا . فعقد صلاح الدين مجلسا من الأمراء استشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة فوافقهم بعضهم وتردد البعض الآخر وكان في هذا المجلس رجل فارسي اعترى أن يتولى بنفسه هذا الأمر فصعد المنبر ودعا للمستضيء العباسي . ولما لم يحتاج أحد على ذلك أمر صلاح الدين بأن يخطب الخطباء باسم الخليفة العباسي . وبعد أيام قلائل توفي الخليفة العاضد فاستولى صلاح الدين على قصره وسقطت بذلك الدولة الفاطمية . الفاطميون في مصر : الدكتور حسن إبراهيم ص ٣٠٨ و ٣١١ - ٣١٢ (٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٦٩

وكان أكثر الأيوبيين استجلاباً لهذه الطائفة الملك الصالح نجم الدين أيوب .
فقد روى لنا أبو المحاسن وابن إياس^(١) أن الصالح أكثر من شراء المماليك بعد أن آل
إليه حكم مصر حتى كان عامة عسكره منهم . ولما خذله أنصاره وانقض عنه أعوانه
من الأكراد وجد فيهم عدته فاعتز بهم وأكثر من شرائهم ؛ فتكثرت عنده منهم جمع
غفير زاحوا أهل البلاد وسرعان ما انتشر بينهم الفساد حتى ضج الأهلون وقال
في ذلك بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوبا بفعلته فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب
يشير الشاعر بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ
وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . [سورة الأنبياء]

٢ - بيبرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب

نبغ من بين المماليك الذين استكثر منهم الملك الصالح عدّة رجال كان لهم أثر
كبير في تغيير مجرى السياسة المصرية فنحصر بالذكر منهم بيبرس ذلك المملوك الذي
أصبح فيما بعد سلطاناً على مصر وعمّ صيته أكثر بقاع الأرض وصار بعد وفاته موضع
حديث الناس وسمّهم يتغنى المصريون بأخباره ويتنمون بما قدّم لهم وللممالك
الإسلام عامة من جليل الأثر وعظيم المفاجر .

وعلى الرغم من أن بيبرس قام بكثير من الأعمال الجليلة التي خلدت ذكره فإنا
لا نجد له في كتب التاريخ ما يشفي الغلة عن تفاصيل حياته الأولى ولا ما يكشف
لنا القناع عن تطوّراته منذ ولد إلى أن بيع في البلاد الشامية . نعم لن يضيرنا ذلك
في مثل بيبرس الذي فاق من تقدّمه من المملوك والسلاطين بمواجهة الأخطار المحدقة

(١) النجوم الزاهرة : ج ٣ القسم الأول ورقة ١٧٥

(٢) بدائع الزهور : ج ١ ص ٨٣

بشرق البلاد الإسلامية وغربها، وبذل كل ما لديه من عدة لإيقاف هذا التيار الجارف ورد هؤلاء المغيرين على أعقابهم حتى كتب له النصر عليهم ورد كيدهم في نحورهم، وكون مملكة متحدة الأواصر مرتبطة العرى من تلك الأقطار التي امتد إليها نفوذ الصليبيين والتي شملها استبداد الأمم التتارية ولاقت من صنوف الأذى ما جعلها ترحب بكل من مد لها يد المساعدة لينتشلها من هذه الهوة السحيقة التي سقطت فيها .

وقد أجمع المؤرخون على أنه ولد ببلاد القفجاق^(١) وقضى بها شطرا من حياته الأولى إلى أن بيع لأحد تجار الرقيق على أثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) . غير أنهم اختلفوا في الجهة التي بيع فيها بعد ارتحاله عن موطنه .

يحدثنا المقرئ^(٢) أن تاجرا قدم به إلى حماء . ولما عرضه على الملك المنصور محمد لم يعجبه فبيع^(٣) بدمشق بثمانمائة درهم ثم رده مشترى لبياض في إحدى عينيه ؛ فاشتراه الأمير علاء الدين أيديكين البندقدار مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو معتقل بحماه وأقام في خدمته مدة ثم أخذه منه الملك الصالح .

(١) تشمل بلاد القفجاق حوض الفلجا والأراضي التي حول بحر قزوين .

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، طبعة الدكتور زيادة ج ١ القسم الثاني ص ٦٣٧

(٣) أورد ابن واصل "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" ج ٢ ص ٤٠ ب، في هذا الصدد قصة طريفة عن سبب رفض الملك المنصور شراء بيبرس ثم ذكر ما حدث لبيرس بعد ذلك مفصلا . وهالك نصها مع بعض التصرف : "وكان السلطان الملك المنصور إذ ذاك في سن الصبا . وكان من عادته أنه متى أراد شراء رقيق أحضر لواء الصاحبة والدته فن أشارت بإبقائه أخذ . وكان الملك المنصور لما بلغه وصول الملك الظاهر مع التاجر تقدم باحضاره فأحضر ومعه خشداش له وعرضا على الصاحبة فرأتهما من داخل الستارة . فلما استأذنها السلطان ولدها في شرائها . قالت له : خذ المملوك الأبيض والأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة (يعني الملك الظاهر) فان عينيه فيها الشر لايم . فردهما على التاجر . ولما بلغ الأمير علاء الدين البندقدار حضور هذين المملوكين اللذين جلبا بعث في طلبهما . وعند ما قدما إليه اشتراهما وهو في الاعتقال وظلا عنده حتى أفرج الملك الصالح نجم الدين أيوب عنه وتوجه بهما إلى مصر فأخذهما الملك الصالح منه " . (٤) البندقدار : هو حامل الجراوه (كيس البندق) خلف السلطان أو الأمير . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٤٥ ج ٥ ص ٤٥٨

ويروى الشيخ قطب الدين اليوناني المتوفى سنة ٧٢٦ هـ في كتابه "الذيل على مرآة الزمان" وأبو المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤ هـ في كتابه "النجوم الزاهرة"^(٢) عن هذه المسألة رواية يستفاد منها أن بيبرس قدم إلى سسيواس على أثر بيعه ببلاده ثم نقل إلى حلب وبيع بعد ذلك بالقاهرة للأمير علاء الدين أيديكين البندقدار وظل عنده حتى أخذه منه الملك الصالح عند ما قبض عليه في شوال سنة ٦٤٤ هـ .
وبينا نتضارب الروايات في تاريخ مولده^(٤) وفي الزمن الذي بيع فيه إلى علاء الدين وفي أي بلد كان ذلك البيع فانا لا نجد فيها جميعها شيئا ذا غناء، اللهم إلا منذ ذلك الوقت الذي دخل فيه في حوزة الملك الصالح نجم الدين أيوب . ومن هنا نرى له الكثير في كتب التاريخ وسنعرض لذلك بشيء من الإسهاب .

٣ - بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح

إلى أن انتصر على الصليبيين بمصر

بدأ بيبرس على أثر انتقاله إلى ملك الملك الصالح حياة جديدة تغاير تمام المغايرة

(١) ج ١٧ ورقة ٩٨ / (٢) ج ٣ القسم الثاني ورقة ٢٣٢ (٣) هناك عبارة وجهها رسول أيضا ملك التتار للظاهر بيبرس عند ما قدم إليه للفأوضة معه في عقد الصلح سنة ٦٦٧ هـ يفهم منها أن بيبرس بيع سسيواس وهذه العبارة هي: "أنت مملوك وأبعت في سسيواس فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض". المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٧٣ - ٥٧٤ (٤) ورد في (Enc. Isl. Art. Baibars I) أن بيبرس ولد سنة ٦٢٢ هـ . وهذا يخالف ما رواه أبو المحاسن ج ٣ القسم الثاني ورقة ٢٣٢ من أنه ولد سنة ٦٢٥ هـ . (٥) كان الصالح أيوب قد أعطاه أبوه الملك الكامل حصن كيفا وسيره إليه سنة ٦٣٠ هـ . وقد قصد بهذا أن يبعده عن مصر فيخلو بذلك الجلق له ولولده العادل ولئى العهد من بعده . المقرئى : السلوك ج ١ القسم الأول ص ٢٤٤

ولما توفى الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ بدمشق اتفق رأى الأمراء بمصر على أن يولوا ابنه الأمير أبا بكر ولقبوه بالملك العادل فاستاء لذلك الملك الصالح وانتزعت فرصة استدعاء المصريين له وهم بمغادرة الشام إلى مصر ليستولى عليها فاعتقله الناصر داود صاحب الكرك بنا بلس وما لبث أن أطلق سراحه وتحالف معه على أن تكون مصر للصالح أيوب والشام للناصر . وفي هذه الأثناء كانت قد دبرت مؤامرة بمصر لخلع الملك العادل وأتفق المالكي الكاملية على استدعاء الملك الصالح فسار معه مماليكه إلى مصر وأعلن نفسه سلطانا عليها سنة ٦٣٧ هـ . وقبض على أخيه العادل وظل في السجن حتى مات سنة ٦٤٥ هـ . المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٢٦٧ و ٢٩٤ - ٢٩٦

ما كان عليه في حياته الأولى من يوم أن وصل الى بلاد الشام . فقد اتخذ الملك الصالح سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) رئيسا لإحدى فرق حرسه الخاص^(١) لما رآه فيه من الحمرة الشماء والفطنة والذكاء ، وظل يرتفع ذكره ويسمو قدره ويتدرج في المناصب حتى أصبح قائدا لفرقة الممالك التي كان لها الفضل الأكبر في صدّ حملة لويس التاسع عن مصر .

وقبل أن نتكلم عن الدور الذي قام به بيبرس في صدّ هذه الحملة يجمل بنا أن نذكر شيئا عن سبب قيامها والعقبات التي صادفتها حتى اشترك بيبرس في صدّها : لما انقضت الجيوش الخوارزمية على سوريا سنة ١٢٤٤ م ونحرت بيت المقدس أثار ذلك ملوك أوروبا واتجهت مجهودات لويس التاسع ملك فرنسا الى تجهيز حملة صليبية لمهاجمة مصر يقودها بنفسه ويكون عمادها الفرنسيون .^(٢) غير أن هذه الحملة لم تلبث أن عصفت بها العواصف عند مرورها بقبرس في أوائل سنة ١٢٤٩ م . فجنى أكثر من نصف سفنها الى سواحل الشام ولم يصل منها سوى سبعة قطع ، ونزح سكان دمياط الى منزلة المنصورة على أثر ظهور سفن الملك لويس التاسع وتركوا مراكب التعديّة فعبرت جيوش لويس عليها بدون عناء .^(٣)

وعلى الرغم من ذلك فقد أخطأ قائد تلك الحملة بتأخره في التقدّم جنوبا إذ كان يجب عليه أن يتقدّم بسرعة نحو القاهرة قبل حلول زمن الفيضان وقبل أن يفريق

(١) Enc. Isl. Art Baibars I.

(٢) هؤلاء الخوارزمية هم عسكر جلال الدين الخوارزمي . وقد ساروا بعد مقتله الى كيقباد ملك روم السلاجقة ثم فارقه لما قبض على أكبر مقدميهم ، فاستألفهم الصالح أيوب وأستأذن أباه الملك الكامل ، استخدمهم في جيشه فأذن له بذلك . أبو الفدا : ج ٣ ص ١٥٩

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East. pp. 324-326.

(٤) Davis, The Invasion ; Joinville, Memoirs of the Crusades p. 116.

of Egypt by Louis IX of France p. 21

المسلمون من صدمة الفرار عن دمياط . وبدلاً من التقدم بسرعة ضرب الملك لويس خيامه وظل ينتظر وصول المراكب التي بعثتها العواصف ، ثم تقدمت جيوشه من دمياط في طريقهم الى القاهرة بعد أن أقامت فيها ستة شهور . غير أن جهلها الطريق كان سبباً في تأخيرها فاستغرقت شهراً كاملاً في قطع الطريق بين دمياط ومنزلة المنصورة وهو لا يزيد على خمسين ميلاً وتأخر تلك الحملة في دمياط وتعثرها في الطريق ذلك الوقت الطويل أتيحت للمسلمين الفرصة بجمعوا شملهم وضموا صفوفهم^(١) .

أما الصليبيون فإنهم وصلوا الى شاربساح — وتقع في منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة — ولكي يتقدموا جنوباً وينفذوا فكرة مهاجمة القاهرة كان عليهم أن يعبروا فرع دمياط أو قناة أشموم طناع . فاختار لويس الطريق الأسهل وعمل على بناء سد في عرض النهر الصغير^(٢) ، وأنشأ أبراجاً متحركة لتحمي الجنود الذين يعملون في السد . غير أن المسلمين بدأوا في مناوشة هؤلاء الجنود وعبرت فرقة منهم هذا النهر من مكان بعيد وحاولت تطويق مؤخرة الجيش الصليبي فطاردها الملك لويس ولكن معسكره على الرغم من ذلك كان معرضاً للخطر من جميع الجهات^(٣) .

وفي تلك الأثناء تقدم أحد أهالي بلدة سلامون وعرض على الصليبيين أن يدلهم على مخاضة كبيرة جهة أشموم طناع في مقابل مبلغ من المال . فاستخدمه الملك لويس دليلاً ، وسير فرقة الخيالة على ثلاث دفعات : أولها الفرسان الداوية . وثانيها الخيالة الرماة وعلى رأسها روبرت كونت أرتوا (Robert Count d'Artois) (أخو الملك لويس)^(٤) . وثالثها فرقة الملك^(٥) .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages

pp. 232-233 (٢) ويعرف الآن باسم البحر الصغير .

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 234.

(٤) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France, p. 38.

(٥) Stanley Lane-Poole; op. cit. p. 234.

لم يلق الصليبيون مقاومة وهم يعبرون النهر أول الأمر . غير أن روبرت كونت أرتوا يجتهد عبور الفرقة الثانية عزم على التقدم للحاق بالعدو ثم اقتحم معسكر المسلمين ، فاخترقه من مقدمته الى مؤخرته وتمكن بعض الفرسان من قتل القائد فخر الدين فانهمزم المسلمون وتفرقوا . ثم دارت الدائرة على الصليبيين ، فقد ثبتت فرقة المماليك أمام هذا الهجوم العنيف وحالت بينهم وبين ما أرادوا من الاستيلاء على قصر السلطان . وكان قائد تلك الفرقة بيبرس الذى انقض عليهم وقلب نصرهم هزيمة واندفع جنود الصليبيين فى شوارع المنصورة وسقط كثير منهم قتلى من بينهم الكونت أرتوا وفرقته ^(١) .

أما بقية الصليبيين فالحقت بالملك لويس عند السد الذى كان قد شرع فى بنائه على النهر الصغير . وقد عرض نفسه بموقفه هنا لمهاجمة الفرق المملوكية التى أحاطت به وأصبح من الصعب عليه أن يهزم جيش المسلمين وخاصة بعد أن فقد كثيرا من فرسانه ولم يبق معه إلا الجنود المشاة الذين لا يستطيعون الحرب إلا بالسيوف .

وعندما أصبح مركز لويس حرجا فكر فى بناء جسر مؤقت على الجزء الذى لم ينته من السد . ولما تم بناؤه استطاعت فرقة من الضفة الأخرى أن تاتى لنجدته ، غير أن النجاح فى بناء هذا الجسر لم يغير شيئا من موقف جيش لويس فلم يمهله المسلمون حتى عاودوا الهجوم عليه موجهين همهم نحو هذا الجسر فى الوقت الذى لم يكن لهم سلطان يأترون بأمره . فقد توفى الملك الصالح فى نوفمبر سنة ١٢٤٩ م عندما بدأ الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة . وكان ابنه وولى عهده الملك المعظم تورانشاه بعيدا عن مصر بحصن ^(٢) كيفا فرأت زوجه شجرة الدر أن تخفى وفاته حتى لا يتطرق الوهن الى نفوس المسلمين فيفرون من ساحة القتال اذا علموا بموت

(١) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. pp. 234-235 ; Davis, The Invasion

of Egypt by Louis IX of France pp. 38-39.

(٢) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. pp. 236-237.

السلطان وبذا يتم للصليبيين الاستيلاء على الديار المضرية ، وأحضرت الأميرين نجر الدين والطواشي جمال الدين محسن وهما من حاشية السلطان وخاصته وأسرت اليهما بموت الملك الصالح وافقت معهما على القيام بتدبير شئون الدولة حتى يحضر ابن زوجها تورانشاه من حصن ^(١) كيفا . فأخذ الأمير نجر الدين يصدر الأوامر مذيلة بتوقيع السلطان الملك الصالح ، وقد قيل إنها كانت بخط خادم يقال له سهيل يشابه توقيع توقيع الملك . ولما وقف حسام الدين نائب القاهرة على حقيقة الأمر وعلم بوفاة السلطان اشتد خوفه من الأمير نجر الدين فكتب الى تورانشاه يطلب منه التعجيل بالحضور ، كما أمر الخطباء بأن يدعوا على منابر القاهرة يوم الجمعة لتورانشاه بعد الدعاء لأبيه الملك الصالح ^(٢) .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى قدم تورانشاه الى مصر . فترل بقصر السلطنة بالمنصورة وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور فأخذ يشرف على الحرب بنفسه . ويدبر خططها برأيه الصائب ونظره الثاقب واستطاع بذلك أن ينجم واقعة المنصورة بنصر على الصليبيين . وكان أول ما قام به من الأعمال أن نقل أسطولا ^(٣) من المراكب على ظهور الجمال الى نقطة على فرع دمياط شمالي المراكب الفرنسية . وهناك اشتبك الأسطولان المصري والفرنسي ودارت الدائرة على الأخير بعد أن خسر كثيرا من مراكبه .

ساء مركز لويس بعد هذه الهزيمة اذ لم يصبح لديه من القوى ما يستطيع بها مقاومة تقدم المسلمين وكذلك لم يبق لديه من الميرة ما يعينه على الوقوف أمام المصريين والمماليك . فضاقت الوسائل بالصليبيين واثارت نفوس الجند من قلة الأزواد

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٤٣ — يقع حصن كيفا على الضفة الغربية لنهر دجلة بالقرب من أمد .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٤٤ — ٣٤٥

(٣) حملت هذه المراكب من سمند الى القناة التى تعرف الآن باسم بحر شين Davis, Invasion of Egypt By Louis IX of France p. 46

وتفشى فيهم الوباء وظل الملك لويس صابرا لا يجد وسيلة تخلصه من هذا المأذق ؛ فاضطر الى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون القدس وبعض بلاد الساحل . فأبى عليهم المصريون ذلك . فأحرق الصليبيون أخشابهم وألقوا مراكبهم وولجأوا الى التحصن في دمياط . فركب المسلمون أقفيتهم وحاربوهم حتى أوصلوهم الى فارسكور ؛ وهناك حملوا على الفريخة حملة صادقة واستمات الممالك في الدفاع بقيادة بيبرس حتى أراحوا الصليبيين عن موقفهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ، كما أسروا كثيرا من الأمراء والجنود وامتلاّت أيديهم بالغانم من السلاح والخيول وغير ذلك .

أما لويس فإنه التجأ مع بقية جيشه الى تل منية عبد الله بالقرب من المنصورة واعتصموا به ، فتبعهم المسلمون وشددوا عليهم الحصار فاضطروا الى التسليم على أن يؤمنوا على حياتهم . وكان يبلغ عددهم خمسة آلاف معظمهم من الفرسان والأشراف ، وسبق لويس معتقلا الى دار القاضي إبراهيم بن لقمان بالمنصورة ، ثم أفرج عنه بعد أن دفع مبلغا كبيرا من المال وبعد أن تم الاتفاق معه على إخلاء دمياط .

علت كلمة الممالك البحرية وعلى رأسهم بيبرس واشتد أزهرهم بهذا النصر الثمين الذي أحرزوه في موقعة فارسكور . وحينئذ نراهم يضمرون السنوء لسلطانهم تورانشاه حين قرب إليه ثمانيك وحاشيته الذين جاءوا معه من حصن كيقا وأحلهم محل ممالك أبيه البحرية في منصب الدولة ، وتضييعة على زوجة أبيه شجرة الدر وتوعده لها أن لم تقتله بمسال أبيه . فلما ضاق بها الصدر وعيل منها الصبر أرسلت الى الممالك تقول لهم " اقتلوا تورانشاه وعلى رضاكم " . فصادف قولها هذا هوى

(١) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 238.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٥ — ٣٥٦

(٣) تعرف الآن بسجن لويس ويقصد بها كثير من السياح والزائرين وقد نقش على بابها تاريخ

أسر لويس بها . (٤) Davis, Op. Cit. pp. 51, 57

في نفوس المماليك ، وزاد الطين بلة والطنبور نغمة ما كان يبلغهم عنه أنه إذا ثمل من الخمر يضع أمامه الشموع مصفوفة ويتناول بيده السيف ويضربها به واحدة بعد أخرى وهو يقول " هكذا أفعل بالملك البحريه " و يذكر أسماءهم واحدا بعد آخر . كل هذه الأمور أحفظت نفوسهم وأوغرت صدورهم وضاقوا بتحملها ذرعا . فأجمعوا رأيهم على الفتك به وتولى أسراؤهم تنفيذ ما اعتزموا عليه بزعامة بيبرس ومعه من الأمراء قلاوون الصالحى وأقطاي الجامدار وأبيك التركمانى وغيرهم .

فلما أقيم السباط على أثر نزول تورانشاه بفارسكور سنة ٦٤٨ هـ تقدم إليه هؤلاء البحريه وبأيديهم السيوف فبادره ركن الدين بيبرس بالسيف على أصابعه فقطعها وتبعه في ذلك الأمراء ، فقتل تورانشاه هاربا ودخل برجا من الخشب كان قد أعده على النيل ليجلس فيه أيام إقامته بفارسكور ، وأخلق عليه بابه فأدركه بيبرس ومن معه وأضرموا النار في البرج فالتقى بنفسه في النيل وأخذ يسبح طالب النجاة بنفسه . فلم يغه ذلك شيئا ورموه بالشباب من كل ناحية وهو يستغيث ولا مغيث وينادى ولا مجيب ويقول " خذوا ملككم ودعوني أرجع الى حصن كيفا " . فلم يلتفت أحد الى قوله ولم يجد من يدفع عنه مخالب الموت وينجيه من القتل وانتهى أمره بأن مات قتلا غريقا حريقا . ولما أيقنوا من وفاته انتشلوا جثته من النيل وتركوها على شاطئه ثلاثة أيام . ولم يجرؤ أحد من حاشيته على دفنه ثم وورى التراب في مكانها .

بذلك انتهت حياة تورانشاه دون أن يجلس على عرش آبائه أو يدخل القاهرة مقر حكمهم . وبقتله انتهى حكم الأيوبيين بالديار المصرية وابتدأ عصر المماليك .

(١) المقرئى السلوك : ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٨ — ٣٦٠ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار

البشر ، ج ٣ ص ١٨١

(٢) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 239.